تجليات الحكاية في شعر عمر بن أبي ربيعة

أ.م.د. عبّاس عبيد كزار

الجامعة العراقية / كلية الآداب

الملخص

يُعدُّ ابن أبي ربيعة في طليعة شعراء الغزل في العصر الأُمويّ الذي أوقف شعره على التغزل بالمرأة وتقدم المحيطين به من أمثال الأحوص والعرجي ووضاح اليمن وغيرهم، لعلّ لطبيعة البيئة التي نشأ فيها والترف الذي أحاق به وكثرة المال أدى به لعدم الالتفات إلى ما خاض فيه مجا يلون له من تزلف وتملق للخلفاء والولاة ووجهاء العصر بُغية الحصول على المال.

سبر أغوار المرأة ورسم صوره من خلال هذه الرؤية، فبنى حكاياته، ونقصد بها هنا حكايات النساء المسكوت عنها، ففضح تفكير المرأة الحجازية وما تضمر وبما تحلم، وتلك جرأة تسجل للشاعر، ففضح أحاديثهن بما يخفين فيها من فرح وحزن، ولاشك في أنّه شاعر خاض غمار التقاطع مع ما هو سائد من رؤية تقليدية ألفتها الأُذن العربيّة في بناء النص، فالقديم لا يتقبل الوليد الجديد المندفع برؤيته بعد مخاض عسير، لا يريد أن يؤمن بذلك، فيبدأ الصراع، ويعتمد البقاء على قوة الوليد الجديد، لقد استطاع الشّاعر أنْ يرسم ملامح تجربته مما دفع بشاعر كبير مثل جرير ليقول: "ما زال يهذي حتى قال الشِّعرَ"

Abstract

Ibn Rabeea is defined as the top love poet in Umayyad era. He stopped writing love poetry with reference to woman and his surrounding peers like AL-Ahwas, AL-Arji and Wadhah AL-Yemen surpassed him. So, this might be attributed to the environment where was brought up, luxury and richness led him not to take into account what others came across because some poets flattered rulers, leaders and pioneers of the era to get money.

Moreover, he gave an in-depth insight into women through this vision, he wrote his stories, it means that he unveiled women untold stories. So, he exposed Hijazi woman thought, her hidden secrets and her dreams. This boldness is attributed to the poet whose name is mentioned above; he disclosed what they hide in their conversations such as their happiness and sadness. Undoubtedly, he came across huge difficulties because his works were against mainstream approach which is based on traditional style in drafting the text. The old-fashioned does not accept the newly born motivated one following tough ordeal. It does not want to believe in it. Therefore, the struggle will be started.

Furthermore, the survival depends on the strength of the new-born. Finally, the poet managed to draw the glances of his own experiences which motivated great poet like Jareer to say "He is still narrating verses even in hallucination"

مُقَدِّمَة

لا شك في أنّ الموضوع سينصب على دراسة السياق النصي في شعر عمر بن أبي ربيعة[١]، لنقف على الجوانب الفنيّة والجماليّة (الاستيطيقية) التي انصب عليها شعره وانماز من غيره من شعراء الغزل، وكيف استثمر الحكاية في بناء النص، ندرك جيداً أهمية العنوان في النظرة الأولى للمتلقي وما يترك ذلك من أثر نفسي عليه بل قد يذهب بعيداً في تأمله في البحث عن مغزى العنوان .

يُعدُّ ابن أبي ربيعة في طليعة شعراء الغزل في العصر الأُمويّ الذي أوقف شعره على التغزل بالمرأة وتقدم المحيطين به من أمثال الأحوص والعرجي ووضاح اليمن وغيرهم، لعلّ لطبيعة البيئة التي نشأ فيها والترف الذي أحاق به وكثرة المال أدى به لعدم الالتفات إلى ما خاض فيه مجا يلون له من تزلف وتملق للخلفاء والولاة ووجهاء العصر بُغية الحصول على المال.

سبر أغوار المرأة ورسم صوره من خلال هذه الرؤية، فبنى حكاياته، ونقصد بها هنا حكايات النساء المسكوت عنها، ففضح تفكير المرأة الحجازية وما تضمر وبما تحلم، وتلك جرأة تسجل للشاعر، ففضح أحاديثهن بما يخفين فيها من فرح وحزن، ولاشك في أنّه شاعر خاض غمار التقاطع مع ما هو سائد من رؤية تقليدية ألفتها الأُذن العربيّة في بناء النص، فالقديم لا يتقبل الوليد الجديد المندفع برؤيته بعد مخاض عسير، لا يريد أن يؤمن بذلك، فيبدأ الصراع، ويعتمد البقاء على قوة الوليد الجديد، لقد استطاع الشّاعر أنْ يرسم ملامح تجربته مما دفع بشاعر كبير مثل جرير ليقول: "ما زال يهذي حتى قال الشِّعرَ"[٢]، وقف النقد القديم ومجا يلون له موقفاً من الشّاعر أخذ مع تقدم الزمن وتقدم تجربته وقوة بنائه أن يحظى بمكانة مهمة في تاريخ الشّعر العربيّ ولاسيّما العصر الأُموي منه ولعلَّ السبب الكامن وراء ذلك أنَّ الشّاعر نهج نهجاً انماز به من كثير من الشّعراء، يصف ذلك الحرمي ابن أبي العلاء، وهو من شيوخ أبي الفرج الأصفهاني حين يقابل بين لاميّة عمر ولاميّة جميل، إذ يقول: "لو أنَّ جميلاً خاطب في قصيدته مخاطبة عمر لأُرتِج عليه وعثر كلامه به"[٣]، إذ برزت فيه رؤيته الشّخصية في بناء النص من هنا جاء أن يأخذ عمر مكانته بين شعراء العربيّة ،على الرغم من اتكائه على ألفاظ سهلة في جلّ قصائده لكن النقاد وجدوا في شعره فصاحة تدل على مقدرة لغوية مستمدة من البيئة الحجازيّة، فضلاً عن اعتماده تراكيب فنية بلاغية كبيرة المغزى والمعنى، التفت الشّاعر إلى أهمية المعنى في بناء النص لشد المتلقي لحكاياته، هذا الميل الواضح في اعتماد المعنى على حساب اللفظ ولاسيّما في الحوارات التي دارت بين صويحباته التي نقلها في الوقت نفسه على علاتها ،وآرانا لانتفق مع ماذهب إليه الأستاذ جورج غريب في كتابه الموسوم "الغزل تأريخه وأعلامه " بانّ الشّاعر عمر بن أبي ربيعة لم يكن الحوار شأنه في بناء النص[٤]، ممن

اشتغلوا في موضوعة الغزل، انصب هم الشّاعر في بناء قصائده على حكايات انفرد بها وراح يرسمها بشكل لوحات جميلة يجسد فيها شوقه وولعه بمن يحب، وقد تقاطع مع الشّاعر الجاهلي هنا ؛ لأنّ الشّاعر الجاهلي كان ينظر لحكاياته الغزلية بوصفها جزءاً من منظومة بناء النص وتقليديته المعروفة، وسنقف أمام حكاياته لنرى كيف ركب الشّاعر موجة بناء النص الحكائي بلغة سهلة تفرد بها عن سابقيه ومجايليه، لعلَّ لطبيعة الموضوعة التي يخوض فيها، كان يرسم بريشة فنان مقتدر، تبنى رؤية أراد لها الخلود، فالديوان يعج بقصائده التي خرجت من تحت عباءة الحوار لتصل إلى ذهن المتلقي وتخترق شغاف قلبه .

وقفت كثيراً عند الدراسات التي دارت حول موضوعة ولع الشّاعر بالمرأة وكيف رسم صورتها، نحن لا نهرب هنا من هذا الموقف بل سنقف لنتخذ منه مخرجاً للوصول إلى حيثياتِ تلك الحكاية التي رسمها ابن ربيعة بنفس المعشوق، ف" عمر أول من أختص بفن شعريّ واحد، وجعل الحوار والقصص من مقوّماته في ذلك على أمير شعراء الجاهلية "[٥] .

سأتخذ من المنهج التكاملي في هذه الدراسة طريقاً لاستبانة الجانب الفنيّ في حكايات عمر بن أبي ربيعة وموقفه من المرأة ومدى تمكنه من وصول الصورة إلى المتلقي، لأننا لا نريد من بحثنا أنْ ينصب على علاقات الشّاعر بالنساء بقدر ما نريد إيصال فكرة عن قوة إدارته لتلك الحوارات على وفق إطار فنيّ، يحمل الإبداع والقدرة الفنيّة .

لعلّ ابن ربيعة تجاوز الشعراء بابتكاره نمطاً جديداً في تصوير العلاقة بين الرجل والمرأة[٦]، وتجاوز شعراء الغزل في صورهم التي انساقت وراء الأعراف والتقاليد الموروثة في النظر إلى المرأة، وقد عبرَ الشّاعر إلى فضاء مفتوح بعيداً عن المغاليق التي كبلت بها ذاكرة الشّاعر العربيّ، لا نتفق مع الشّاعر ابن أبي ربيعة في كوّنه قد خرق قانون العلاقة التي رُسمت بين الرجل والمرأة وبدا كأنَّه أكثر جرأة في رسم صورتها وهي قادمة لأداء مناسك الحج، فهتك بذلك سترها واساء لها ليجسد في تلك الحكايات فحولة رجلٍ مرفه لا يعرف سوى اللهو ومغازلة النساء وقد اتخذ من ذلك مهنة، وعدّه النقاد رأس المدرسة الحسيّة في الشّعر العربيّ، " إنّه أصدق مثال للعصر وللبيئة اللذين كان يعيش فيهما، وإنّ المؤرخ الذي يريد أن يدرس حياة الارستقراطية القرشية في الحجاز أثنا القرن الأوّل للهجرة يجب أن يلتمس هذه الحياة في شعر عمر بن أبي ربيعة قبل أن يلتمسها في أخبار التاريخ وحوادثه المختلفة "[٧].

مسرد الحكاية في شعره

انمازت القصيدة القصصية بصفتها جنساً أدبيّاً له معاييره التي ينتمي إليها، فضلاً عن اتكائه على البنى السّرديّة لغرض شعريّ واضح المعالم، فكان ابن أبي ربيعة يمثل المثال الأرقى لهذا التصور، استثمر الشّاعر في بناء قصائده التي افرط فيها بالحكائية والغنائية ،التي أدهش المتلقي بها

وفتنه من خلال حضورها البهي من اعتماده الحكاية مستثمراً قدرتها على امتلاك التشويق على وفق مشاهد حركيه وتداخل شخصياتها في مكان محدد ترسم فيه أحداثاً مهمة يصنعها الشّاعر المبدع، يقول :

حَـدِّثْ حَـديثَ فتـاةِ حَـيٍّ مَـرَّةً ... .بالجِزْعِ بَـيْنَ أَذاخِـرٍ وَحَـرَاءِ
قَالَـتْ لِجَارَتِهـا(عِشـاءً) إذْ رَأَتْ ... نَزَهَ المكَـانِ وَغَيْبَـةَ الأعْـداءِ
فـي رَوْضَـةٍ يَمّمْنَهَـا مَوْلِيَّـةٍ ... مَيْثَـاءَ رَابِيَـةٍ بُعَيْـدَ سَـماءِ
في ظلِّ دَانِيَـةِ الغُصُـونِ وَرِيقَـةٍ ... نَبَتَـتْ بـأَبْطَحَ طَيِّـبِ الثَّرْيـاءِ
وكـأنّ رِيقَتَهَـا صَـبِيرُ غَمَامَـةٍ ... بَرَدَتْ عَلَى صَحْوٍ بُعَيْـدَ ضَـحَاءِ
لَيْتَ المُغِيـرِيَّ العشِـيَّةَ أَسـعَفَتْ ... دارٌ بِـهِ لِتَقَـارُبِ الأَهـوَاءِ
إذْ غَابَ عنَّا مَنْ نَخَافُ وَطَاوَعَـتْ ... أَرْضٌ لَنَـا بِلَـذَاذَةٍ وَخَـلاءِ
قُلْتُ اركبُوا نَزُرِ التي زَعَمَـتْ لَنَـا ... أَنْ لا نُباليهـا كبِيـرَ بَـلاءِ
بَيْنَا نَسِـيرُ رَأَتْ سَـمَامَةَ مَوْكِـبٍ ... رَفَعُوا ذَمِيلَ العِـيسِ بالصَّـحْرَاءِ
قَالَتْ لِجَارَتِها انظري ها مَنْ أُولَـى ... وَتَـأَمَّلِي مَـنْ رَاكِـبُ الأدْمَـاءِ
قَالَتْ أَبو الخَطَّـابِ أَعْـرِفُ زِيَّـهُ ... وَرَكُوبَـهُ لا شَـكَّ غَيْـرَ مِـراءِ
قالَتْ وَهَلْ ؟قَالَتْ نَعَمْ فَاسْتَبْشِـري ... مِمَّـنْ يُحَـبُّ لُقِيُّـهُ بلِقَـاءِ
قَالَـتْ لَقَـدْ جَـاءَت إذاً أَمْنِيَّتِـي ... في غَيْرِ تَكْلِفَـةٍ وَغَيْـرِ عَنَـاء
ما كُنْتُ أَرْ جـو أَن يُلِـمَّ بأَرْضِـنا ... إلاَّ تَمَنِّتَـهُ كَبِيـرَ رَجَـاءِ
فَـإِذا المُنَـى قَـدْ قَرّبَـتْ بِلِقائِـهِ ... وَأَجَابَ فِـي سِـرٍّ لَنَـا وَخَـلاءِ
لَمَّـا تَوَاقَفْنَـا وَحَيَّيْنَاهُمَـا ... رَدَّتْ تَحِيّتَنَـا عَلَـى اسـتِحْيَاءِ
قُلْـنَ انزِلُـوا فَتَيَمَّمُـوا لِمَطَـيِّكُمْ ... غِيَبـاً تُغَيَّبُـهُ إِلـى الإمسـاءِ
إنْ تَنْظُرُوا اليَوْمَ الثَّوَاءَ بأَرْضِـنا ... فَغَدً لَكُـمْ رَهْـنٌ بِحُسْـنِ ثَـوَاءِ
عُجْنَا مَطايا قَـدْ عَيِـينَ وَعُـوِّدَتْ ... أَلاَّ يَـرُمْنَ تَرَغُّمـاً بِرُغَـاءِ
حَتَّى إذا أُمِـنَ الرَّقِيـبُ وَنُوِّمَـتْ ... عَنّا عُيُـونُ سَـوَاهِرِ الأَعـداءِ
خَرَجَتْ تَأَطَّرُ فِـي ثَـلاثٍ كَالـدُّمى ... تَمْشِي كَمَشْيِ الظَّبْيَـةِ الأَدْمَـاءِ
جَاءَ البَشِـيرُ بأَنَّهـا قَـدْ أَقْبَلَـتْ ... ريـحٌ لهـا أَرَجٌ بِكُـلِّ فَضَـاءِ
قَالَتْ لِرَبّـي الشُّـكْرُ هـذي لَيْلَـةً ... نَـذْراً أُدّيـهِ لَـهُ بِوَفَـاءِ[٨]

الذي يعني البحث هنا مدى حضور الحكاية وتقنياتها ورسائلها التعبيرية، ومدى مقدرة الشّاعر على استعمالها، إذ اتخذت مظهراً سرديّاً انصهر في بنية النص، ولا بد لنا هنا أن نقف عند رؤية مهمة في النص الذي اجترحه ابن أبي ربيعة وبناه بشكل فنيّ جميل معتمداً الحكاية وسيلة للوصول إلى المتلقي، فقد سما الشّاعر بقصائده التي اتكأت على الحكاية إلى غاية شعريّة لا تخرج عن سياق البناء الفنيّ للقصيدة العربيّة التي ألفتها الأُذن العربيّة وعشقتها، واستعمل شيئاً من معطيات السّرد فاتكأ على الحكاية بوصفها تمثل حدثاً من خلال تطوّره الزمني وعلاقاته السببيّة، فكانت قصائده مبهره، يقول :

قَالَتْ لأَتْرابٍ نَوَاعِمَ حَوْلَهَا	بِيضِ الوجُوهِ خَرَائِدٍ مِثْلِ الدُّمَى
باللهِ ربِّ مُحَمَّدٍ حَدِّثْنني	حَقًّا أَما تَعْجَبْنَ مِنْ هذا الفَتَى
أَلدّاخِلِ البَيْتَ الشَّدِيدَ حِجَابُهُ	في غَيْرِ مِيعَادٍ أَمَا يَخْشَى الرَّدَى
فَأَجَبْتُهَا إنَّ المُحِبَّ مُعَوَّدٌ	بِلِقاءِ مَنْ يَهْوَى وإنْ خَافَ العِدَى
فَنَعِمْتُ بالاً إذْ دَخَلْتُ عَلَيْهِمُ	وَسَقَطْتُ مِنْهَا حَيْثُ جِئْتُ عَلَى هَوَى
بَيْضاءُ مِثْلُ الشَّمسِ حِينَ طُلُوعِها	مَوسُومَةٌ بِالحُسْنِ تُعْجِبُ مَنْ رَأَى(٩)

كان استلهام الشّاعر للحكاية مع محبوبته التي نظمها شعراً، قامت على الحوار والسّرد ،وقد ابدع الشّاعر ايما إبداع في إدارة هذا الحوار، وجدناه قد افاد من الحكاية ويمكن عدّ هذه الحكاية قصة قصيرة، إذ ينجلي البناء القصصي من خلال رسم شخصياتها وحواراتها .

إنّ طرائق صوغه السّردي لكثير من حكاياته على الرغم من تداخلها النصي في بنية الشّعر وذوبانها فيه، ظلت أسيرة البساطة، لاسيّما فيما يتعلق بالبناء الزمني وشخصيات الشّاعر وإنماط السّرد ومظاهره .يقول:

بَرَزَتْ بَيْنَ ثَلاثٍ	كَالمَهَا تَقْرُو الصَّريما
قَمَرٌ، بَدْرٌ، تَبَدَّى	بَاهِراً يُعْشِي النُّجوما
قُلْتُ: أَهْلاً بِكُمُ، مِنْ	زُوَّرٍ زُرْنَ كَرِيما
فَأَذَاقَتْنِي لَذِيذاً	خِلْتُهُ رَاحاً خَتِيما
شَابَهُ شَهْدٌ وَثَلْجٌ	نَقَعاً قَلباً كَلِيما
ثُم أَبْدَتْ، إذ سَلَبْتُ ال	مِرْطَ، مُبْيَضّاً هَضِيماً
فَلَهَونَا اللَّيْلَ حَتَّى	هَجَمَ الصُّبحُ هُجوما
قُمْنَ يُزْجِيْنَ غزالاً	فَتِرَ الطَّرفِ، رَخِيماً
وَلَقَدْ قَضَّيْتُ حاجا	تِي، وَلاَقَيْتُ النَّعيما(١٠)

استمدت القصيدة مداها و ألقها الفنيّ والجمالي من ترابط أمور عديدة، فقد انماز الشّاعر بعاطفة جياشة تتضح في بنائه الفنيّ من خلال صوره التي رسم ملامح شخوصها بإحساس رسام مرهف الحس، فضلاً عن امتلاك الشّاعر لأدواته لا سيّما اللغة منها والتي انمازت بالثراء، فضلاً عن انزياحاتها ومجازاتها التي اتخذت من تقنيات السّرد معبراً للوصول للمتلقي.

نلاحظ على قصائد الشّاعر ميلاً واضحاً إلى المحافظة على سياق يعتمده في لغة الخطاب السّرديّ، إذا يعتمد منهج الراوي المتماهي بمرويه، فاتكأ الشّاعر على ضمير المتكلم واتخاذه وضعية الراوي ؛ لأنّه يدرك جيداً بأنّه عن طريق هذا الاستدلال سيصل إلى مبتغاه، يتمثل بقوة إقناع المتلقي لذلك وجدناه يبتعد كثيراً في بناء نصه عن طريق تنوع الضمائر في خطابه السّرديّ واتكائه على ضمير المتكلم، وعند مفاتشتنا للنص، نكتشف أنّ الشّاعر حينما لجأ إلى هذا الضمير وأقصد به ضمير المتكلم، إنّما جاء ليعبر عن إحساسه الداخلي ومقدار وجعه وعشقه وألمه في تصوير ذات مولعة بالعشق والنساء، يقدم صورةً أكثر من مقنعة للمتلقي بمدى ما يؤمن به، ونحن حين نتبع الإيقاع السّردي للنص نجده ايقاعاً يتوافق مع الرؤية الثقافيّة للدارسين، إذ اعتمد الحوار الهادئ، يقول:

قِفِي فانْظُري أَسماءُ هَلْ تَعرفِينَهُ ... أَ هَذَا المُغِيريُّ الذِي كَانَ يُذْكَرُ

أَهَذَا الَّذي أَطْرَيْتِ نَعْتاً فَلَمْ أَكُنْ ... وَعَيْشِكِ أَنْساهُ إلى يَوْمِ أُقْبَرُ

فَقَالَتْ: نَعَمْ لا شَكَّ غَيَّرَ لَونَهُ ... سُرَى اللَّيْلِ، يُحْيِي نَصَّهُ، والتَّهَجُّرُ

لَئِنْ كَانَ إياهُ لَقَدْ حَالَ بَعْدَنا ... عَنِ العَهْدِ وَ الإِنسانُ قَد يَتَغَيَّرُ

رأَتْ رَجُلاً أَمّا إذا الشّمْسُ عَارَضَتْ ... فَيَضْحى وَأَمّا بالعَشِيِّ فَيَخْصَرُ

أَخا سَفَرٍ جَوّابَ أَرْضٍ تَقَاذَفَتْ ... بِهِ فِلَواتٌ فَهْوَ أَشْعَثُ أَغْبَرُ

قَلِيلٌ عَلَى ظَهْرِ المَطِيَّةِ ظِلُّهُ ... سِوَى ما نَفَى عَنْهُ الرِّداءُ المُحَبَّرُ

وَأَعجَبَها مِنْ عَيْشِها ظِلُّ غُرْفَةٍ ... وَرَيّانُ مُلتَفُّ الحَدائِقِ أَخْضَرُ

وَوَالٍ كَفَاها كُلَّ شَيْءٍ يَهُمُّها ... فَلَيْسَتْ لِشَيْءٍ آخِرَ اللَّيْلِ تَسْهَرُ

وَلَيْلَةَ ذي دَوْرانَ جَشَّمْتِني السُّرَى ... وَقَدْ يَجْشَمُ الهَوْلَ المُحِبُّ المُغَرِّرُ

فبِتُّ رَقِيباً لِلرِّفاقَ عَلَى شَفا ... أُحَاذِرُ مِنْهُمْ مَنْ يطوفُ وَأَنْظُرُ

إِلَيْهِمْ مَتَى يَسْتَمْكِنُ النَّوْمُ مِنْهُمُ ... وَلَي مَجْلِسٌ لَولا اللُّبانَةُ أَوْعَرُ

وَبَاتَتْ قَلوصي بالعَرَاءِ وَرَحْلُها ... لِطارق لَيْلٍ أَو لِمَنْ جَاء مُعْوِرُ

وَبِتُّ أُناجي النَّفْس أَيْنَ خِباؤُها ... وَكَيْفَ لِمَا آتي مِنَ الأَمْرِ مَصْدَرُ

فَدَلَّ عَلَيْها القَلْب رَيّا عَرَفْتُها ... لَهَا وَهَوَى النَّفْسِ الذي كاد يظْهَرُ

فَلَمّا فَقَدْتُ الصَّوْتَ مِنْهُمْ وَأُطْفِئَتْ ... مَصَابِيحُ شُبِّتْ بالعِشاءِ وَأَنْوُرُ

وَغَابَ قُمَيْـرُ كُنْـتُ أَهْـوى غُيُوبَـهُ ... وَرَوَّحَ رُعْيَـانٌ وَنَـوَّمَ سُـمَّرُ

وَخُفِّضَ عَنِّي الصَّوْتُ أَقْبَلْتُ مِشْـيَةَ الْ ... حُبابِ وَشَخْصي خَشْيَةَ الحَـيِّ أَزْوَرُ

فَحَيَّيْـتُ إِذْ فَاجَأْتُهـا فَتَوَلَّهَـتْ ... وَكَادَتْ بِمَخْفُوضِ التَّحِيَّـةِ تَجْهَـرُ

وَقَالَتْ وَعَضَّـتْ بالبَنَـانِ فَضَـحْتَني ... وَأَنْتَ امْرُؤٌ مَيسـورُأَمْرِكَ أَعْسَـرُ

أَرَيْتَـكَ إِذْ هُنَّـا عَلَيْـكَ أَلَـمْ تَخَـفْ ... وُقِيتَ وَحَوْلي مِنْ عَـدُوِّكَ حُضَّـرُ

فَوَاللَّـهِ مَـا أَدْرِي أَتَعْجِيـلُ حَاجَـةٍ ... سَرَتْ بِكَ أَمْ قَدْ نَامَ مَنْ كُنْتَ تَحْـذَرُ

فَقُلْتُ لَهَا: بلْ قادنيّ الشَّوْقُ والهَـوَى ... إِلَيْكِ وَمَا نَفْسٌ مِنَ النَّـاسِ تَشْـعُرُ

فَقَالَتْ: وَقَـدْ لانَـتْ وَأَفْـرَخَ رَوْعُهـا ... كَـلاكَ بِحِفْـظٍ ربُّـكَ المُتَكَبِّـرُ

فَأَنْـتَ أَبـا الخَطّـابِ غَيْـرَ مُـدَافِعٍ ... عَلَيَّ أَميـرٌ مـا مَمكَثْـتَ مُـؤَمَّرُ

فبتُّ قَريـرَ العـينِ أُعطيـتُ حـاجتي ... أُقَبِّـلُ فاهـا فـي الخـلاءِ فَـأُكثِرُ

فَيَا لَـكَ مِـن لَيْـلٍ تَقَاصَـرَ طُولُـهُ ... وما كانَ لَيْلي قَبْـلَ ذلِـكَ يَقْصُـرُ

وَيَا لَكَ مِنْ مَلْهًـى هُنَـاكَ وَمَجْلِـسٍ ... لَنَـا لَـمْ يُكَـدِّرْه عَلَيْنَـا مُكَـدِّرُ

يَمُـجُّ ذَكِـيَّ المِسْـكِ مِنْهـا مُقَبَّـلُ ... نَقِيُّ الثَّنَايـا ذو غُـروبٍ مُؤَشَّـرُ

تَرَاهُ لَـهُ إذا مـا افتُـرَّ عَنْـهُ كَأَنّـهُ ... حَصَـى بَـرَدٍ أَو أَقْحُـوانٌ مُنَـوِّرُ

وتَرْنُـو بِعَيْنَيْهـا إِلَـيَّ كَمَـا رَنَـا ... إِلى ظَبْيَةٍ وَسْـطَ الخَمِيلَـةِ جُـؤذَرُ

فَلَـمَّ تَقَضَّـى اللّيْـلُ إلاَّ أَقَلَّـهُ ... وكَـادَتْ تَـوَالِي نَجْمِـهِ تَتَغَـوَّرُ

أَشارَتْ بِأَنَّ الحَـيَّ قَـدْ حَـانَ مِـنْهُمُ ... هُبُوبُ وَلَكِنْ مَوعِـدُ مِنْـكَ عَـزْوَرُ

فَمَـا رَاعنـي إلاَّ مُنَـادٍ تَرَحَّلُـوا ... وَقَدْ لاَحَ مَعْرُوفٌ مِنَ الصُّبحِ أَشْـقَرُ

فَلَمّـا رَأَتْ مَـنْ قَـدْ تَنَبَّـهَ مِـنْهُمُ ... وَأَيْقَاظَهُمْ، قَالَتْ: أَشِرْ كَيْـفَ تَـأمُرُ

فَقُلْـتُ: أَبـادِيهِمْ فَإِمَّـا أَفُـوتُهُمْ ... وَمَنّا ينـالُ السَّـيْفُ ثَـأراً فَيَثْـأَرُ

فَقَالَـت أَتحقيقـاً لِمـا قَـال كَاشِـحٌ ... عَلَيْنا وَتَصْديقاً لِمَـا كَـانَ يُـوْثَرُ

فَـإِن كَـانَ مـا لا بُـدَّ مِنْـهُ فَغَيْـرُهُ ... مِنَ الأَمْرِ أَدْنَـى لِلخَفَـاءِ وأَسْـتَرُ

أَقُـصُّ عَلَـى أُخْتَـيَّ بَـدْءَ حَـدِيثِنا ... وَمَا لِـيَ مِـنْ أَنْ تَعْلَمـا مُتَـأَخَّرُ

لَعَلَّهُمـا أَن تَطْلُبـا لَـكَ مَخْرَجـاً ... وَأَن تَرْحُبا سَرْباً بِمَا كُنْتُ أَحصُـرُ

فَقَامت كَئِيباً لَـيْسَ فـي وَجْهِهـا دَمُ ... مِنَ الحُزْنِ تُـذْرِي عَبْـرَةً تَتَحَـدَّرُ

فَقَامَـت إِلَيْهَـا حُرَّتَـانِ عَلَيْهِمـا ... كِساآنِ مِنْ خَزٍّ دِمَقْـسُ وَأَخْضَـرُ

فَقَالَتْ لأُخْتَيْهـا: أَعِينـا عَلَـى فَتًـى ... أَتَى زَائِـراً والأَمْـرُ لِلأَمْـرِ يُقْـدَرُ

فأَقْبَلَتَـــا، فَارْتَاعَتَـــا، ثُـــمَّ قَالَتَـــا: أَقِلِّي عَلَيْكِ اللَّوْمَ فَالْخَطْـبُ أَيْسَـرُ
فقالتْ لها الصُغْرى: سأُعطيه مِطْرفـي ودِرْعي، وهذا البُرْدَ إنْ كانَ يَحْـذَرُ
يَقُـــومُ فَيَمْشِـــي بَيْنَنَـــا مُتَنَكِّـــراً فَلَا سِرُّنا يَفْشُو ولَـــا هُـــوَ يَظْهَـرُ
فَكَـــانَ مِجَنِّـــي دُونَ كُنْـــتُ أَتَّقِـــي ثَلاثُ شُخوصٍ كَاعِبَـــانِ وَمُعْصِـرُ
فَلَمْا أَجَزْنا سَـاحَةَ الحَـيِّ قُلْـنَ لَـي أَلَمْ تَتَّقِ الأَعْـداءَ وَاللَّيْـلُ مُقْمِـرُ
وقُلْـنَ أَهَـذا دَأْبُـكَ الـدَّهْرَ سَـادِراً أَما تَسْتَحِي أَوْ تَرْعَـوِي أَوْ تُفَكِّـرُ
إذا جِئْتَ فَامْنَح طَرْف عَيْنَيْـكَ غَيْرَنَـا لِكَيْ يَحْسِبُوا أَنَّ الهَوَى حَيْثُ تَنْظُـرُ
فَآخِرُ عَهْدٍ لي بهـا حِـينَ أَعْرَضَـتْ وَلَـاحَ لَهَـا خَـدٌّ نَقِـيٌّ وَمَحْجِـرُ
سِوَى أَنَّني قَدْ قُلْتُ، يـا نُعْـمُ، قَوْلَـهُ لَهَا وَالعِتاقُ الأَرْحَبِيّاتُ تُزْجَـرُ(١١)

لاشك في أنّ الشِّعر خلق فنيّ (١٢)، ينفد الشاعرُ من خلاله إلى المتلقي ليعبر عمّا يدور في نفسه، والشّعر وظيفة طبيعية وأنْ لازمه إعمال فكرٍ وجهد، وفي ديوانه قصائد كثيرة تسرد حكايات جميلة رسمها الشّاعرُ تصويراً لما مرَّ به في مُعترك حياته اللاهية، فالشّعرُ إبداعٌ، نلحظ ذلك على تلك القصائد وهي محملة بحكايته، وقد انتخب ألفاظها وإيقاعاتها وموسيقاها ،يركب صهوة حصان معتدٍّ به لأنّ القصيدة كانت هي التي يركن إليها لتهدأ روحه بما تمنحه إياه ؛ فالشّاعر يخلق تجربته الشّعورية من دون أنْ ينظر إلى نتائج هذه التجربة .

المكان والحكاية

ظلَ الشّاعرُ أسير الوصف والتشبيب في حواره القصصي، تتنازع في داخله عفة وإباحية، وكان في كِلا الحالين يقع تحت طائلة النشأة، ولعلّه قد استمد ذلك من الشّاعرالقديم الذي أوجد أرضية صلبة لبناء النص عنده، ألم نجد المنخل اليشكري(١٣) في معلقته يوحي لنا بهذا الفهم الذي أدركناه عبر حواره القصصي، إذ يقول:

ولقـــد دخلـــتُ علـــى الفتـــا ةِ الخِدرَ في اليومِ المطيـــرِ
الكاعـــبِ الحســـناء تـــر فُـــلُ بالـــدِّمَقْس والحريـــرِ
دفعتُهـــــا، فتـــــدافَعتْ مَشْيَ القطاةِ إلـــى الغـــديرِ
ولثمتُهـــــا، فتنفَّســـــت كتـــنفّس الظبـــي البَهيـــرِ
ورنَـــت وقالـــت: يـــامُنَخَّ لُ هل بجسمك مـــن فتـــورِ
ما مسَّ جســـمي غيـــرُ حُـــبّ ك فاهدئي عنِّي وسيري(١٤)

إنّ حكايات عمر بن أبي ربيعة إنّما هي في كثير من الأحيان ظلٌّ لتجربة نفسيّة عاناها بعيداً عن الصنعة التي ألفتها بعض قصائد العربيّة لا سيّما في الطللية المعروفة في تراث العرب الثقافي " ولايبعد الشّاعر امرؤ القيس كثيراً في معلقته عن هذه الرؤية "[١٥].

الابتعاد عن الطللية التمسك بالحكاية

مظاهر حكايات ابن ربيعة في قصائده الغزلية، تبعد في بنائها عن الطللية التي ألفتها قصائد الجاهليين من وقوف على الأطلال والبكاء واستبكاء رفيق الرحلة،وأن مرّ عليها مرور العابرين بصفتها لازمة ألفتها الثقافة العربيّة في بناء النص [١٦]، إلاّ أنّ الرحيل شكّلَ هماً للشاعر في جلِّ حكاياته، فمثل الوجع الذي لا ينتهي في تلك اللحظات التي يودع فيها الحبيبة الراحلة عنصراً أساسياً في بناء مستهل الحكاية التي يروم ايصالها للمتلقي، فعلى الرغم من إحساسه وشعوره بنرجسية عالية، ظل أسير بناء النص الجاهلي في هذا المظهر، ولكن الشّاعر بين ملامح حكايته حينما يصل إلى وصف موقف الحبيبة الراحلة، يقول :

أَرِقْـــتُ، وَابَنـــي هَمّـــي، لِنَـــأيِ الـــدّارِ مِـــنْ نُعْـــمِ
فَأَقْصَـــرَ عَـــاذِلٌ عَنّـــي، وَمَـــلَّ مُمَرِّضـــي سُـــقْمي
أَمُـــوتُ لِهَجْرِهـــا حُزْنـــاً، وَيَحْلُـــو عِنْـــدَها صَـــرْمي
فَبِـــئْسَ ثَـــوابُ ذاتِ الـــوُدِّ تَجْزِيـــهِ، ابْنَـــةُ العَـــمِّ
وَيَـــومَ الشَّـــرْيِ قَـــد هَاجَـــتْ دُمُوعـــاً وكَّـــفَ السَّـــجْمِ
غَـــدَاةَ جَلَـــتْ عَلَـــى عَجَـــلٍ شَـــتِيتاً بَـــارِدَ الظَّلَـــمِ
وَقَالَـــتْ لِفَتَـــاةٍ، عِـــنْ دَهـــا، حَـــوْرَاءَ كَـــالرِّئْمِ
أَهُـــوْ، يـــا أُخْـــتِ بـــاللهِ، الَّ ذِي لَـــمْ يَكْـــنِ عَـــنْ اسْـــمي
وَلَـــمْ يُجَازِنـــا بـــالوُدِّ، أَحْفَـــى بـــي، وَلَـــمْ يَكْـــمِ
فَقَالَـــتْ رَجْـــعَ مـــا قَالَـــتْ: نَعَـــمْ يُخْفِيـــهِ عَـــنْ عِلْـــمِ
فجِئْـــتُ فَقُلْـــتُ: صَـــبٌّ ذَلَّ مِـــنْ وَاشٍ أَخـــي إِثْـــمِ
وَقَـــدْ أَذْنَبْـــتُ ذَنبـــاً فـــاص فَحـــي، بـــاللهِ، عَـــنْ ظُلْمـــي
فَقَالَـــتْ: لا، فَقُلْـــتُ: فَلِـــمْ أَرَقْتِ دَمـــي بـــلا جُـــرْمِ؟[١٧]

ومهما اختلفت الأمثلة الحكائية التي طرحتها قصائده، فلابن ربيعة، في شعره، توقيت واضح، ترك الزمن أخدوده في خرائط تلك القصائد، كان موفقا في بنائه القصصي والتنقل في حكايته مصوراً معاناته في تواصله مع تلكم النسوة على اختلاف مشارب الحكاية وصدقها، فأذا تتبعنا قصائده، في مراحل مختلفة مرت بها شاعريته وأدركنا بأنَّ أحاسيسه ومشاعره لم تكن متشابهه دائما

وأنَّما هي متغيرة جراء عوامل عديدة، فضلا عن أنَّ مزاج الشاعر قد ينتقل من حال إلى حال، قلقاً، مضطرباً، على ضوء تلك الحكايات ومدى تحقق مداها، لكنه ظل دائما ذلك الشاعر التواق إلى اللقاءات الليلية الحميمة التي تجود بها صويحباته وتستجيب إلى عطش لواعجه .

يفر الشّاعر في لجة الحكاية العاتي التي يريد من خلالها وفي أجواء معاناتها ،قيادة الحكاية بتعادل متزن، ليصبح في ذلك اللقاء أكثر بهاءً وأقل حَزَناً ليترك للمتلقي فرصة الشّعور بانتمائه إلى هذا النمط من الشّعر الذي جاء وليد بيئة تقاطعت مع موروث ثقافي جبلت عليه الثقافة العربيّة في بناء النص وقد تجاوز في ذلك معاصريه من الشّعراء ،لقد بيّن ابن رشيق: أن من الأدباء من يقول: الشّعراء ثلاثة جاهلي وإسلامي وأُمويّ ومولّد، ثم يقول: وهذا قول من يؤثر الأنفة وسهولة الكلام والقدرة على الصنعة والتجويد في فن واحد، أما الثلاثة الذي ذكرهم فهم المهلهل ابن ربيعة وعمر ابن أبي ربيعة وعباس بن الأحنف"[١٨] ورسم لنفسه حدوداً على الرغم مما يمر به أحياناً من يأس تتقاطع فيه الأوقات العصيبة في الانتظار صراع عاشه الشّاعر بين الوعد في اللقاء والآتي وما يحمل من طعم تلهف له الروح، فكانت بداية الحكاية ومن هنا تبدأ مهمته في رسم ملامحها في إطار قصصي جميل، يدرك الشَّاعر أَنَّ صدى الحكاية أقوى من كلِّ الأصوات، ترتسم عليه ملامح الخوف والقلق والشّك وخيبة الأمل، حين يرى أَنَّ هذا اللقاء قاب قوسين أو أدنى .

الاتكاء على السّرد

يمثل الشَّاعر في حكايته الشَّعرية التي تحمل لبوساً جديدة في الأدب العربي في الشّعر الأُمويّ موقفاً واضحاً في بناء النص، تفصح في الوقت نفسه عن روح درامية تتشبث بمحاور بناء الفن القصصي مع الآخر، وتضع اللبنة الأولى من الحكاية وبناء ملامحها في السَّرد الشَّعري العربي، ولعلّها تُعَدُّ مثالاً أو صورة للمثال الذي استقاه ابن أبي ربيعة ونجح فيه إلى حدٍ بعيد.

اعتمد الشّاعر في رسم حكايته على ضمير المتكلم، كونه بطل الحكاية وقد روى لنا حكايته مع محبو بته معتمدا خيالاً واسعاً (ولا تقدم الأحداث إلاّ من زاوية نظر الراوي، فهو يخبر بها، ويعطيها تأويلاً معيناً يفرضه على القارئ، يدعوه إلى الاعتقاد به)[١٩] ، تجلّت الحكاية في ضوء ذلك عند ابن أبي ربيعة كوّنه قد قدم مثالاً يرتبط بحميمية الصّورة التي رسمها، من هنا كانت شخصية الشّاعر هي بؤرة النص، وبغية أنْ نكون واقعيين في قراءتنا للنص إذ لايمكن أنْ نعدَّ رسم الحكاية برؤية ضمير المتكلم في غزله إذ لابد أنْ تتلاقح مجموعة من الانماط السّردية الأدبيّة الأخرى كي تصل إلى ما يسمو إليه الشّاعر.

وصف في حكاياته قصصاً حدثت لعلَّ الخيال كان مرجعية أكثرها، والرواة أيضاً على الرغم من أنَّه كان مقتدراً في الإشارة إلى صويحباته وأماكن الحدث ويمكن عدَّه جزءاً من سيرته الذاتية ،" هكذا نرى أن القصيدة / الحكاية تنقسم إلى قسمين كبيرين، يندرج كلٌّ منهما في برنامج سردي

مُختلف"[٢٠]، فيما تضمن من حكايات اعتمد فيها نمطاً أسلوبياً يتصف بالمباشرة ،كان أغلب الحوار الذي أداره وتجلى في حكاياته العديدة المختلفة الاتجاهات، أحدث سرداً يمكن أن نطلق عليه (مونولوجاً) أي حواراً داخلياً ليكشف للمتلقي خفايا تلك اللقاءات الحميمة بل اعتمد صورة المرأة العاشقة المولهة بحبه، اعتمد أسلوباً بعيداً عن المباشرة، فيتخذه وسيلة للتقرب للمتلقي حينما يدع المرأة تتحدث عن أسرارها ولكن بصوته هو، من هنا رسم علاقة بينه وبين قارئ النص.

نقل الشّاعر حكاياته للمتلقي مباشرة، لأنّها لم تحدث أمام عين المتلقي وأنّما من خلال ذلك الحوار الذي دار بين شخوص حكاياته من النسوة الحالمات باللقاء، لاشك في أنّه كان يدرك أهمية الأثر الذي يحدثه في المتلقي من خلال رسم تلك الحكايات ومدى غموضها لأنّه بالمقابل قد يكون للسلطان هنا هيبة متابعة من يخرج على الأعراف والتقاليد.

من هنا تجلّت الحكاية في قدرة الشّاعر على إرسال رسائل للمتلقي أوضح فيها كثيراً من المسكوت عنه في العرف الاجتماعي، كان للحوار أثره الواضح وغلب على أكثر الحكايات في قصائده وقد اعتمد ضمير الغائب، من أمثلة ذلك قوله :

وآخِـرُ عَهـدي بالرَّبـاب مقالُهـا لَنا، ليلَةَ البطحاءِ، والـدَّمعُ يَسْـجُمُ
طَرِبْتَ، وطاوعتَ الوُشاةَ، وَبَيَّنَـتْ شمائلُ مِـنْ وَجْـدٍ، فَفِـيْمَ التَّجَـرُّمُ
هَلُـمَّ فـأَخبِرْني بِـذَنْبِي أعْتَـرِفْ بِعُتْباكَ ،أَو أَعْرِفْ إذاً كَيْفَ أَصْرِمُ[٢١]

أخذت الشّخصيات في حكايات ابن ربيعة تتجلى معالمها من خلال قدرته على التوصيف، ، فكانت أصواتهن المهموسة ودعواتهن الوجلة له، وعلاقة تلك النسوة بعضهن ببعض قد رسمت بريشة فنان بارع، لأنَّ اتكاء الشّاعر على ذلك يمثل معالجة درامية ؛لأنَّ تلك الشّخصيات التي تحدث عنها كثيراً شكلنَّ صورةً طاغيةً على مشهد الحكاية من دون أن يشعر المتلقي بأنّ تلك الشّخصيات قد اقحمت أحياناً إقحاماً جليّاً بُغية إتمام المشهد، فرسم خوفهن، رغبتهن الجامحة، للوقوف على ذروة المشهد الأخير حينما يلتقي مع محبوبته التي بدورها تطلب من الأخريات أنْ يمنحنها فرصة إشباع رغبتها من هذا اللقاء الحميم الذي جازفن من أجله وتحملن وواجهن قيوداً كانت شائعة في المجتمع وتعدُّ جزءاً مهماً في ثقافة بنائه الاجتماعي، مثلما أشرنا إلى اهتمام الشّاعر ببيان الأبعاد الخارجية لشخوصه وقد تجلّت في أكثر من نص في ديوانه ولا نبالغ إذا قلنا إنّ ديوانه قد بُني في أغلبه على هذه الرؤية، فرد تلك الشّخصيات بشكل جماعي يروي من خلال ذلك حكاية حبه وولعه المفعم بالمشاعر الفياضة، حكايات نسوة دافقة بالصور الأنثوية المعبرة ،نجح الشّاعر وذهب بعيداً بصفته راوياً عليماً بالحكايات التي نسجها ورسم ملامح بنائها عندما قدم شخوص حكاياته المتمثلة بالحبيبة العطشى للقائه وصويحباتها اللاتي ينشدن الدهشة والمتعة من وراء هذه لقاءات .

أصرَّ الشّاعر على أن يكون هو الشّخصية الفاعلة في بناء نصه؛ فالشّاعر يتحدث باسم بطلة الحكاية ويتطرق إلى معاناتها فيما يحيط بها من عدو يلاحق أنفاسها ويحسب عليها خطواتها، فكان متداخلاً في العمل بشكل واضح ؛ فارتبطت شخصيته بتلك الشّخصيات المتمثلة بالمحبوبة وصويحباتها فكانت العلاقة أحياناً قمة في الايجابية ونراها أحياناً متوترة حينما تختلط طبيعة العلاقة بين الحبِّ والكرّه ولكن في الأعم ساءت العلاقة الايجابية، لأنَّ الشّاعرَ بصفته المرسل لتلك الحكايات، كان يدرك جيداً أهمية ذلك الحوار الذي قام به بين البطلة وصويحباتها، ونجاحهن في اتمام الصفقة اللقاء ومجازفتهن في حمايتها وحمايته في الوقت نفسه .

من هنا كانت قصائده موضوعة وصفية تحمل من التعقيد شيئاً كثيراً، ذلك في ضوء اعتمادها على تعدد الأصوات وفي الوقت نفسه استعمال الحكي فضلاً عن ايماءاته الرمزية العديدة، محور منجزه الشّعريّ المرأة والقصيدة نمت ممثلة بيئة ارتبطت بالتحول في مفهومات بناء الدولة الإسلامية عند النشأة ؛ شاعرنا غير معني بالأمر السياسي، غارقٌ في الهم الذاتي، فطبيعة حياته فرضت هذا النمط الشّعري من دون أن يفي ذلك له أنَّه خرج عن تقليدية الموروث الذي ألفته الذائقة العربيّة ؛ فكانت قصائده تحمل في طياتها رومانسية اللفظة وبساطة اللّغة، وبحث حميم عن المرأة في ظل توهم عاطفي .

استحوذت الحكاية على تلابيب البناء الفني للقصيدة مما يقربه من الصورة المبتغاة حتى يتلاحم بها مكوناً منها صوراً مادتها البيئة الحجازية ومضمونها صدق المعاناة الوجدانية وانصهارها في بوتقة حكاياته مع من يُحب، فجاءت حكاياته أكثر تنامياً وتوافقاً مع تطوّر الشّاعر في بناء النص لاسيّما وقد اختط لنفسه طريقاً يخالف فيه كثيراً من مجا يليه وهنالك أكثر من دليل على ذلك، ظلت المرأة تمسك بخيط يمتد بشكل متواشج في كلِّ حكاياته وعدّها موضوعاته الأثيرة معترفاً بذلك، فطابعه الحسي المقترن بتصوير هواجس تلك النّسوة الغارقات في العشق وصورة اللهفة للقاءات الحميمة معتمداً حيثيات المكان لتأكيد العلاقة بينه وبينهن، ليقدم صورة أقرب للواقعية منها للخيال وقد يتدخل الخيال ليمنح في ضوئه الشيء المعنوي صورة حسية تذكرنا بمدى قلق الشّاعر في رسم مسار تلك الحكايات وبنائها.

عاش الشّاعر عاشقاً، وظل طيلة حياته يعبر عن عنوان حياته اللاهية ويحاول في الوقت نفسه أنْ يرسل للمتلقي رسائل كي يدرك ويفهم بواعثه بغية تحقيق حلمه، تتجلى حكاياته عبر ذلك الصراع المتأزم بنفس عاطفي ورغبة في التملك، وقد انعكس ذلك في نصه المتماهي أحياناً مع صور العاشق الجاهلي في حوارته وغربته، كان الزّمن يمثل قطب تلك الرغبة الجامحة عند الشّاعر فتدور عند مخيلته خواطر يرسم في ضوئها ملامح تلك اللقاءات وما ينتظره، وقد الح الشّاعر على بيان أثر

الزمن وصروفه بتأمل السّليم الذي يحلم بالشّفاء، افصح عن تطلعاته وآماله في تلك اللقاءات، كان يصور لهفة الآخر ليقدم لنا قصائد تتجلى فيها الحكاية.

نلاحظ على الشّاعر كثرة الأسئلة، وهي أسئلة العارف، يطلقها ليجيب في الوقت نفسه، شاغلاً المتلقي المتلهف الملم بالصّورة التي سيؤول فيها الحوار وإلى أيٍّ مدى، إنّ هذا الأداء البطيء في الايقاع له ما يسوغه في بناء النص، لأنّه لاشك في تصوير مشاعر الشّاعر/ الرّاوي، وقد اتكأ على أفعال، وواضح لأي دارس أهمية ديناميكية الفعل الذي يتقطع مع سكوت الجملة الاسمية، كان وصفيّاً في بنائه .

استعمل في كثير من قصائده لغة سرديّة تعتمد الحكاية لبناء مجازاته التي تُعَدُّ الزّاد الحقيقي لبنائه اللّغوي الشّعريّ، فلجأ في بناء قصائده معتمداً العناصر التي تشكل جوهر القصيدة الغزليّة في العصر الأُمويّ لاسيّما الجانب الموسيقي وقد اتكأ على بحور انمازت بالبحور السّهلة الغناء(٢٢)، معتمداً في الوقت نفسه عناصر السّرد، فضلاً عن اتكائه على رسم صور اتخذت من التفاصيل اليوميّة لمغامراته التي يدعيها منهجاً لها، " فالحكاية التفسيرية تلعب دوراً كبيراً في رسم الصورة"(٢٣).

ولابد لنا هنا أن نتساءل ونحن ندرس شاعراً كبيراً مثل عمر بن أبي ربيعة عن مغزى لجوئه إلى اعتماد لغة السّرد وسيلة للوصول إلى القارىء، ماذا أراد من ذلك، وما الذي دفعه إلى اعتماد هذا المنهج في بناء نصه ،أسئلة كثيرة تدور في مخيلة الباحث وراء حقيقة النص الذي كتبه ابن أبي ربيعة، لاشك في أنّ ميله إلى استعمال السّرد وتقنياته ربما يرتبط برغبته للتعبير عن أفكاره بطريقة السّرد والحكي، وهذا المنهج لا يخطىء أيّ متابع لبناء القصيدة العربيّة أنّ أغلب الشّعراء اعتمدوا هذا الأسلوب في بناء نصوصهم، ولا نغالي إذا قلنا هو طريق سلكه الشّاعر رغبة منه بالتجديد والتجريب في آنٍ واحد، وترك بصمة واضحة المعالم لرؤيته في بناء النص باعتماد الحكاية .

تستمد قصيدته معالم ألقها الفنيّ والجمال من خلال عوامل عديدة تتمثل بلغة ثرية ينماز الشّاعر بها عن غيره من مجايليه والتي استثمر فيها قدرتها على الانزياح وببساطتها الممتنعة في استعمال تقنيات السّرد، فضلاً عن ما اتضح من امتلاكه لعاطفة جياشة تقف خلف كلّ صورة رسمها وقد تجلت بشكلٍ واضح في السّرد والحوار في نصه ولا جرم في ذلك في تصويره لعاطفة جياشة ملؤها الحبّ والحنين على الرغم من إدعائه أو تصنعه القدرة على أنّه المطلوب عشقاً، وهناك من يذوب في أذياله عشقاً، هكذا يحاول أنْ يوهم المتلقي، بصوره التي جسدها في ديوانه .

خضعت قصائد الشّاعر لبناء معين ترك بصمة واضحة لمدى تماسك تلك القصائد، فقد خضع بناؤه الشّعريّ لمستوى دلالي يمكن المتلقي من أن يدرك مدى تماسك قصائده بمضمون واحد وأن جاءت متألفة الإيقاع والوزن، وقد اتخذ الشّاعر شكلاً واحداً في بناء قصائده وقد تقاطع هنا مع ما

عرف عن القصيدة في شعر ما قبل الإسلام من أنّها كانت تتماز بالطول وتعدد الوحدات التي يتجسد من خلالها بناء النص، فكان نصه بسيطاً يتناول موضوعة واحدة يجسد من خلالها دفق أحاسيسه وقوة مشاعره، على الرغم من أنّ هذه البساطة لا تعني أنّ عمق القصيدة لم يكن يحمل هماً إنسانيّاً وجهداً فنيّاً واضحاً.

يدرك الباحث جيداً أنّ هنالك بوناً شاسعاً بين قوة المبنى للقصيدة في عصر ما قبل الإسلام وهذه الثيمة أشار لها النقاد العرب القدامى، وتوقفوا عندها طويلاً، قد تكون البساطة قد غلبت عليه أخذت مداها وشكلت تجلياً من تجليات حضوره، فرسم ملامح رؤيه فنيّة جديدة تعبر عن صدق الشّاعر في نصه، معبراً عن أفكاره وأحاسيسه ودفق عاطفته، بغية الوصول إلى ما يروم .

ما قام به ابن أبي ربيعة فارس الغزل العذريّ، وركوبه موجة بناء النص الشّعريّ الذي، يتسلل إلى شغاف قلب المتلقي، ضمن المسار السّرديّ للنص، جزءاً مهماً وفاعلاً عندما يتفاعل مع ذلك الحوار الذي يشغل الشّاعر فيه متلقيه، وفي ذلك الغاء واضح لتلك العقبات الشّكليّة التي يصنعها بعض الشّعراء حاجزاً يقف بينهم وبين مكاشفة المتلقي عن قوة الأفكار والعواطف التي تختلج في نفس الشّاعر، صورة واضحة المعالم عن مدى أرقه ووجوده.

من هنا اتخذ الشّاعر مساراً بسيطاً في بنائه الشّعريّ لايمانه بأنّه الطريقة المثلى لا يصال ما يؤمن به للمتلقي، وجدنا الشّاعر يبتعد كثيراً عن الطللية التي ألفتها ثقافة بناء القصيدة العربيّة، وتغنت بها، ايماناً منه بأنّ الوقوف عند الأطلال لا يتناسب مع ما يتحدث فيه، فالشّاعر يعيش لحظات العشق وانتظار اللقاء فليس في حاجة للوقوف على الأطلال وتذكر الراحلين، يدرك في الوقت نفسه أنّه يحمل مضامين الوجع، الذي نقصد به، وجع الاغتراب في المكان، تحققت الشّعريّة في بنائه من دون الرجوع إلى الموروث الثقافي للقصيدة العربيّة، وهذا يحسب له لا عليه، جاءت قصائده تسير على وفق رؤية واضحة الانسجام والاتساق والتماسك، فضلاً عن وحدة الموضوع التي لا زمت ابن أبي ربيعة في قصائده.

تجلت الحكاية على وفق رؤية عاطفيّة ؛ فالشّاعر يصور ولع تلك النسوة به، ونلاحظ أنّها تعد موضوعه الأثير الذي يتردد في جميع قصائده، ذلك الولع النسوي بشخصه، تلك النرجسية العالية، والشغف بالمرأة، ومثلما أشرنا أنّه يرسم ملامح شخصيات الحوار في النص، معبرة عن قوة اندفاعه النفسيّ وتصوير لميثولوجيا الواقع المعيش، فالشّاعر مدار البحث، بعيد كلّ البعد عن الصراع الدائر في زمنه وهموم الإنسان وجوعه والآمه واضطهاده من قبل الآخر، ابن أبي ربيعة ليس معنياً بذلك، ظل أسير لوحة الذات المتأرجحة بين اليأس في اللقاء والأمل الموعود، لذلك انصب جلّ همه على الغزل بالمرأة، ولا هم له غيرها .

يمثل الشّاعر عمر ابن أبي ربيعة نقلة نوعية في بناء النص الشّعريّ العربيّ من حيث البناء الشّعريّ، فلتجربته خصوصية انماز بها من غيره من مجايليه، وقد هيمن على بناء النص الشّعري الحواري، فقد انتقل الشّاعر بالقصيدة العربيّة من طلليتها المعروفة إلى فضاء جديد ينماز بالوحدة الموضوعية وظل محافظاً على الغنائية التي ألفتها الأذن العربيّة، فضلاً عن ما انماز به من نفس سردي، تجلّت فيه أساليب السّرد ومكوناته بشكلٍ واضح .

أضحت الرؤية السّرديّة في شعره معياراً للتكوين البنائي للحكاية في الأدب العربيّ بصفتها جنساً أدبيّاً تلاقح مع أجناس أُخرى مستثمراً عناصرالسَّرد وتقنياته ليقدم للمتلقي منجزاً ثقافيّاً ليس فيه إخلال في بنية النص من الناحية الفنيّة " ولا عجب أن يحتوي الشِّعرعلى عنصر قصصي يتخذه الشّاعر مجالاً لتجربته، وهو فيه أبعد ما يكون عن الخضوع لقواعد القصة في مفهومها الحديث"(٢٤).

شكلت الحكاية التي جاءت على وفق تقنيات السَّرد بأشكالها المتعددة محوراً أساسيّاً في بناء النص الشِّعريّ لابن أبي ربيعة ؛ لايصال معاناته للمتلقي، إنَّ اتكاءه على الحكاية واستعمالها في بناء النص الشِّعري أفاد الشَّاعر إفادة كبيرة في الوصول إلى المتلقي، فضلاً عن ما تركت من أثرٍ واضحٍ في تقوية بناء القصيدة وعززت من مستوى بنائها في الجوانب الفنيّة دلالة وتركيباً وايقاعاً.

ثمار البحث

استحوذت الحكاية على تلابيب البناء الفني للقصيدة مما يقربه من الصورة المبتغاة حتى يتلاحم بها مكوناً منها صوراً مادتها البيئة الحجازية ومضمونها صدق المعاناة الوجدانية وانصهارها في بوتقة حكاياته مع من يُحب، فجاءت حكاياته أكثر تنامياً وتوافقاً مع تطوّر الشّاعر في بناء النص لاسيّما وقد اختط لنفسه طريقاً يخالف فيه كثيراً من مجا يليه وهنالك أكثر من دليل على ذلك

اتخذ الشّاعر مساراً بسيطاً في بنائه الشّعريّ لإيمانه بأنّه الطريقة المثلى لإيصال ما يؤمن به للمتلقي، وجدنا الشّاعر يبتعد كثيراً عن الطللية التي ألفتها ثقافة بناء القصيدة العربيّة، وتغنت بها، إيمانا منه بأنّ الوقوف عند الأطلال لا يتناسب مع ما يتحدث فيه، فالشّاعر يعيش لحظات العشق وانتظار اللقاء فليس في حاجة للوقوف على الأطلال وتذكر الراحلين، يدرك في الوقت نفسه أنّه يحمل مضامين الوجع، الذي نقصد به، وجع الاغتراب في المكان، تحققت الشّعريّة في بنائه من دون الرجوع إلى الموروث الثقافي للقصيدة العربيّة، وهذا يحسب له لا عليه، جاءت قصائده تسير على وفق رؤية واضحة الانسجام والاتساق والتماسك، فضلاً عن وحدة الموضوع التي لا زمت ابن أبي ربيعة في قصائده.

تجلت الحكاية على وفق رؤية عاطفيّة ؛ فالشّاعر يصور ولع تلك النسوة به، ونلاحظ أنّها تعد موضوعه الأثير الذي يتردد في جميع قصائده، ذلك الولع النِّسويِّ بشخصه، تلك النرجسية العالية، والشغف بالمرأة، ومثلما أشرنا أنّه يرسم ملامح شخصيات الحوار في النص، معبرة عن قوة اندفاعه النفسيّ وتصوير لميثولوجيا الواقع المعيش، فالشاعر مدار البحث، بعيد كلّ البعد عن الصراع الدائر في زمنه وهموم الإنسان وجوعه والآمه واضطهاده من قبل الآخر، ابن أبي ربيعة ليس معنياً بذلك، ظل أسير لوحة الذات المتأرجحة بين اليأس في اللقاء والأمل الموعود، لذلك انصب جلّ همه على الغزل بالمرأة، ولا هم له غيرها .

عاش الشّاعر عاشقاً، وظل طيلة حياته يعبر عن عنوان حياته اللاهية ويحاول في الوقت نفسه أنْ يرسل للمتلقي رسائل كي يدرك ويفهم بواعثه بغية تحقيق حلمه، تتجلى حكاياته عبر ذلك الصراع المتأزم بنفس عاطفي ورغبة في التملك، وقد انعكس ذلك في نصه المتماهي أحياناً مع صور العاشق الجاهلي في حوارته وغربته، كان الزمن يمثل قطب تلك الرغبة الجامحة عند الشّاعر فتدور عند مخيلته خواطر يرسم في ضوئها ملامح تلك اللقاءات وما ينتظره، وقد الح الشّاعر على بيان أثر الزمن وصروفه بتأمل السّليم الذي يحلم بالشّفاء، افصح عن تطلعاته وآماله في تلك اللقاءات، كان يصور لهفة الآخر ليقدم لنا قصائد تتجلى فيها الحكاية.

يمثل الشّاعر عمر ابن أبي ربيعة نقلة نوعية في بناء النص الشّعريّ العربيّ من حيث البناء الشّعريّ، فلتجربته خصوصية انماز بها من غيره من مجايليه، وقد هيمن على بناء النص الشّعري

الحواري، فقد انتقل الشّاعر بالقصيدة العربيّة من طلليتها المعروفة إلى فضاء جديد ينماز بالوحدة الموضوعية وظل محافظاً على الغنائية التي ألفتها الأذن العربيّة، فضلاً عن ما انماز به من نفس سردي، تجلّت فيه أساليب السّرد ومكوناته بشكلٍ واضح .

هوامش البحث ومصادره:

(١) هو عمر بن أبي عبد الله بن أبي ربيعة ابن المغيرة بن عبد الله بن عمر مخزوم بن يقظة بن مرة القرشي، كان يكنى أبا الخطاب، ولد سنة: ٢٣ه، وكان تاريخ ولادته السبب في تسميته عمر ؛ إذ إنّه ولد الليلة نفسها التي توفى الله بها عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ، أمير المؤمنين، وذلك ليلة الأربعاء لأربع بقيت من ذي الحجة . وكان الحسن البصري يقول فيها: أيّ حق رفع وأي باطل وضع ؟ يعني مقتل عمر ووضع عمر . توفي سنة ٩٣ه ؛ في هذا التاريخ كان يغزو في البحر في مدينة دهلك فمات فيها أي في الغزو حرقاً أو غرقاً بعد حرق سفينته .ينظر ديوان عمر ابن أبي ربيعة، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه، د فايز محمد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ٢٠٠٨م ،٧ومايليها والأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين: " الأغاني"، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠٤م ،١/ ٦٢ ومايليها، و ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم: الشّعر والشّعراء، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، مصر، ١٩٦٦م:٢١٦والبغدادي، عبد القادر بن عمر: " خزانة الأدب "، تحقيق وشرح عبد السّلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ١٩٨٦م، ١/ ٢٤٠.

(٢) المَرزباني ،أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى (ت ٣٨٤ه) : "الموشح"، تحقيق على محمد البجاوي، نهضة مصر، القاهرة، مصر، (د:ط) ،(د:ت) ،٢٦٠، الأغاني، للأصفهاني :٣٨/١

(٣) الأغاني، للأصفهاني :١٣٤/٢

(٤) غريب،جورج:" الغزل تاريخه وأعلامه"دار الثقافة، بيروت، لبنان،(د:ط) (د:ت) ، ١٣٠.

(٥) ينظر غريب، جورج: الغزل تاريخه وأعلامه ،١٧٣.

(٦) ينظر حَاطوم، عفيف نايف: " الغزل في العصر الأُمويّ" ،دار صادر، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠٨م ،٩١ ومايليها.

(٧) ديوان عمر ابن أبي ربيعة: ١٣. مقال للدكتور طه حسين نشر في جريدة السياسة في ١٠ديسمبرسنة ١٩٢٤م .

(٨) المصدر نفسه :٣٣،٣٤

(٩) المصدر نفسه :٣٧،٣٨

(١٠) المصدر نفسه ٣٤٢،٣٤٣

(١١) المصدر نفسه:١٢٢ ومايليها

(١٢) ينظر المطلبي، عبد الجبار: " مواقف في الأدب والنقد "، دار الحرية للطباعة، بغداد، العراق، ١٩٨٠م، ١٨١.

(١٣) الشّعر والشّعراء، لابن قتيبة :٤٠٥/١، والأغاني، للأصفهاني :٦/٢١، والمرزوقي، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن (ت ٤٢١ه) : " شَرحُ ديوان الحماسة لأبي تمام "، علق عليه وكتب حواشيه، غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، وينظر دواوين صغيرة/ ديوان الحارث بن حلّزة، حققه هاشم الطعان، مطبعة الإرشاد، بغداد، العراق، ١٩٦٩م ،٣٧١/١.

(١٤) الشّعر والشّعراء ،لابن قتيبة: ٤٠٥/١ وما يليها.

(١٥) ينظر الغزل في العصر الأُمويّ ، عفيف نايف حاطوم ،١١٨.

(١٦) ينظر المرجع نفسه، الصفحة نفسها ،وينظر جبور، جبرائيل: " عُمر ابن أبي ربيعة "، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط٣، ١٩٨١م، ٤٨٨وما يليها.

(١٧) ديوان الشّاعر عُمر ابن أبي ربيعة:٣٤٤،٣٤٥

(١٨) القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق: " العمدة في محاسن الشّعر، وآدابه، ونقده "، حققه محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان ،ط٥، ١٩٨١م :٦٣/١

(١٩) ينظر لفته، ضياء غني، وعواد كاظم: " سردية النص الأدبي" دار الحامد للنشر، بغداد، العراق، ٢٠١١م، ٦٤.

(٢٠) صحراوي، إبراهيم: " السّرد العربيّ القديم "، الدار العربيّة للعلوم ناشرون، الجزائر العاصمة، الجزائر، ٢٠٠٨م، ١٨٨.

(٢١) ديوان عمر ابن أبي ربيعة: ٣١٩.

(٢٢) ينظر غريب، جورج: الغزل تاريخه وأعلامه ،١٢٩.

(٢٣) إبراهيم، عبد الله: "موسوعة السَّرد العربيّ"، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ٢٠٠٥م، ٧٩.

(٢٤) هلال، محمد: (دراسات ونماذج من مذاهب الشّعر ونقده) ، القاهرة، مصر، دار نهضة مصر، ١٩٦٠، ٥٩.

المصادر والمراجع

١. إبراهيم، عبد الله: "موسوعة السَّرد العربيّ"، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ٢٠٠٥م.
٢. الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين: " الأغاني"، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠٤م.
٣. البغدادي، عبد القادر بن عمر: " خزانة الأدب "، تحقيق وشرح عبد السّلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ١٩٨٦م.
٤. جبور، جبرائيل: " عُمر ابن أبي ربيعة "، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط٣، ١٩٨١م.
٥. حَاطوم، عفيف نايف: " الغزل في العصر الأُمويِّ" ،دار صادر، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠٨م.
٦. دواوين صغيرة/ ديوان الحارث بن حلّزة، حققه هاشم الطعان، مطبعة الإرشاد، بغداد، العراق، ١٩٦٩م.
٧. ديوان عمر ابن أبي ربيعة، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه، د فايز محمد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ٢٠٠٨م.
٨. صحراوي، إبراهيم: " السّرد العربيّ القديم "، الدار العربيّة للعلوم ناشرون، الجزائر العاصمة، الجزائر، ٢٠٠٨م.
٩. غريب، جورج:" الغزل تاريخه وأعلامه "دار الثقافة، بيروت، لبنان، (د:ط) (د:ت) .
١٠. ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم: الشّعر والشّعراء، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، مصر، ١٩٦٦م.
١١. القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق: " العمدة في محاسن الشّعر، وآدابه، ونقده "، حققه محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان ،ط٥.
١٢. لفته، ضياء غني، وعواد كاظم: " سردية النص الأدبي" دار الحامد للنشر، بغداد، العراق، ٢٠١١م.
١٣. المَرزباني ،أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى (ت ٣٨٤هـ) : "الموشح"، تحقيق على محمد البجاوي، نهضة مصر، القاهرة، مصر، (د:ط) ،(د:ت) .
١٤. المرزوقي، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن (ت ٤٢١هـ) : " شَرحُ ديوان الحماسة لأبي تمام"، علق عليه وكتب حواشيه، غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
١٥. المطلبي، عبد الجبار: " مواقف في الأدب والنقد "، دار الحرية للطباعة، بغداد، العراق، ١٩٨٠م.

١٦. هلال، محمد: (دراسات ونماذج من مذاهب الشّعر ونقده) ، القاهرة، مصر، دار نهضة مصر، ١٩٦٠م